

## ● أدلة الإيمان فى النظر العقلى الصحيح :

المنكرون لوجود الله من أصحاب العقول قلة بالنسبة لأصحاب العقول المؤمنة بوجود الله . وأقوى دليل عقلى عند المؤمنين بالله من أهل الفكر والنظر العقلى هو « قانون السببية » الذى عبّروا عنه بقولهم : « كل فعل لا بد له من فاعل » .

هذا القانون وإن عُرِفَ قبل نزول القرآن ؛ لأنه قانون فطرى ، فإن القرآن حين ذكره أضاف إليه قانوناً فطرياً آخر هو قوله تعالى : ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ، فصار لدينا قانونان فطريان :

أحدهما قانون السببية وهو : « كل فعل لا بد له من فاعل » .

والثانى يمكن أن نسميه : « قانون الاستحالة » وهو : « أن المعدوم لا يوجد نفسه » ، وآية الطور : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ تضمنت ذكر القانونين معاً كما ترى .

وبعد نزول القرآن ، وهديته للعقل الإنسانى نظر كثير من الفلاسفة العقليين فى أدلة الإيمان بوجود الله ، سواء منهم من كان مسلماً أو غير . والذين صدق نظرهم فى هذه الأدلة ساروا مع هدى القرآن فيها ، حتى الذين لم يتخذوا من القرآن مبدءاً لنظرهم . وفى ما يأتى بيان موجز لهذه الاتجاهات . .



## ● العلامة ابن رشد :

ابن رشد علّم من أعلام الفلسفة الإسلامية العقلية ، وقد هداه نظره فى القرآن لإثبات دليلين قويين على وجود الله :

الدليل الأول ، دعاه دليل : « الاختراع » ، وهو وثيق الصلة بقانون السببية المتقدم ذكره .

والدليل الثانى : هو دليل العناية . .

## \* دليل الاختراع :

والمراد بهذا الدليل عند ابن رشد هو هذا الخلق المبدع ، أى خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما . ويعتمد هذا الدليل عند ابن رشد على أصلين :

أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة على غير مثال سابق ، أى أوجدها الله من العدم . وهذا كما يقول ابن رشد ملحوظ بقوة فى خلق النبات والحيوانات والإنسان ، لأننا نشاهد وجودها بعد عدمها فى دورات منتظمة . أما السموات والأرض فيُستدل على وجودها بعد عدمها بحركاتها وأنها مُسَخَّرَةٌ مقهورة لخالقها .

أما الأصل الثانى : فيقول فيه ابن رشد : « إن كل مُخْتَرَع لا بد له من مُخْتَرِع » ، والنظر العقلى ينتهى من هذا إلى الإيمان بوجود الله .



## \* دليل العناية :

دليل العناية هو الدليل العقلى الثانى عند ابن رشد على ضرورة الإيمان بوجود الله . ومعنى هذا الدليل أن الله خلق الكون وما فيه للعناية بالإنسان وتدبير أمره ، فكل ما فى الكون فيه منافع للناس : السموات وما فيها من كواكب ، والأرض وما عليها من جبالٍ ورواسٍ وأنهارٍ وجوارٍ وبحارٍ ومحيطاتٍ وزروعٍ وأنعام . ويعتمد هذا الدليل عند ابن رشد على أصلين كذلك :

أحدهما : أن جميع الموجودات موافقة لمنافع الإنسان والعناية به .

والثانى : أن هذه العناية مقصودة لفاعل حكيم مختار ، هو الله .

ذكر العلامة ابن رشد هذا الكلام فى كتابه القيم : « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد أهل الملة » ، وقال : إن آيات القرآن الكريم تتنوع فى الدلالة على وجود الله ثلاثة أنواع :

نوع يتضمن التنبيه على دليل الاختراع .

ونوع يتضمن التنبيه على دليل العناية .

ونوع يتضمن التنبيه على الدليلين معاً .

فمن النوع الأول قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ \* خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ \* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (١) .

ومن النوع الثانى قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (٢) .

ومن النوع الثالث قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ . فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

هذا ما انتهى إليه فيلسوف عقلى مسلم ، وهو موفق فى رصده هذين الدليلين وفى التمثيل لهما ، بيد أن القرآن فيه أدلة أخرى لم ينتبه إليها ابن رشد ، وليس هذا يضيره ، فحسبه ما اهتدى إليه رحمه الله .



### ● الفلاسفة غير الإسلاميين :

وانتهى فلاسفة الغرب غير المسلمين إلى ما انتهى إليه ابن رشد الفيلسوف المسلم ومعه غيره من الفلاسفة الإسلاميين .

فحكماء أوروبا اعتمدوا ثلاثة أدلة عقلية على وجود الله وجوداً لا يتطرق إليه شك ، ودليلاً من هذه الأدلة الثلاثة هما دليل ابن رشد مع اختلاف التسمية .

(٣) غافر : ٦٤

(٢) البقرة : ٢٢

(١) الطارق : ٥ - ٧

\* أول هذه الأدلة الثلاثة هو برهان الخلق ، ويسميه الأوروبيون « البرهان الكوني » ، ويُفسِّرون هذا البرهان بأن الكون ومَن فيه وما فيه كائنات تتوارد عليها الحركات ، وكل متحرك لا بد له من مُحَرِّك عظيم يؤثر في الموجودات ولا يؤثر فيه هو شئ .

\* وثانى هذه الأدلة هو « برهان القصد والغاية » ، وفى معناه يقولون : إن نظام العالم يدل دلالة قاطعة على وجود إرادة محيططة به وبما فيه من الأسباب والغايات . وفى هذين الدليلين يلتقى فلاسفة الغرب الحديث مع حكماء الإسلام القدماء .

\* أما الدليل الثالث فيسميه حكماء أوروبا « برهان الاستعلاء والكمال » ، فالله هو المحرِّك والمنظِّم المريد ، وصاحب المثل الأعلى ، غنى بنفسه عن غيره ، غير محتاج إلى شئ قط ، لا أول له ولا آخر .

وهذه الأدلة الثلاث نطق بها القرآن فى أجلى بيان ، وقد سبق التمثيل من القرآن للدليلين الأوَّلين ، أما الثالث فقد جاء فى القرآن الحكيم نصاً قاطعاً فى لفظه ومعناه : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (١) .

وهكذا تكفَّل القرآن العظيم بهداية العقل وإمتاع الروح بإيراد الأدلة القاطعة على وجود الله العظيم ، وإنك لتجد هذه الأدلة مبثوثة فى آياته على نسق عجيب حكيم . يدركها الخواص بظواهرها وبواطنها ودقائق أسرارها ، ويدركها العوام بآثارها وظلالها ، فتتيسر أسباب الهداية أمام طلابها ، وتقوم الحُجَّة على الملحدين والمعاندين .



---

(١) الروم : ٢٧

## ● صفوة القول :

إن العقل السليم يهتدى بكل يسر إلى أدلة وجود الله خالقاً ومدبراً .  
أما من أنكر وجوده فهم قلة عميت قلوبهم وزاغت أبصارهم ، وطُمست  
عقولهم ، وأن الاعتقاد بوجود الله حقيقة فطرية أدركتها الأمم البدائية ،  
وعبرت عنها فى مسميات مختلفة ، حتى إذا جاءت الرسل جلت أمر هذه  
الحقيقة بكل وضوح ، مستعينة فى تجليتها بآيات الله فى الكون وفى النفس ،  
لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .



## ● مواجهة القرآن للإشراك والتعدد :

الإشراك والتعدد يدوان فى ظاهر الأمر مترادفين ؛ أى هما لفظان يدلان  
على معنى واحد ، بيد أن الأمر خلاف ذلك ؛ لأن الإشراك ملحوظ فيه معنى  
الإيمان بالله مع إشراك غيره فى الألوهية معه سبحانه عما يقولون .

أما التعدد فأعم من الإشراك ، لأنه يشمل الإشراك ، ثم يختص بظاهرة  
تعدد الآلهة فى العقائد الوثنية التى لا تؤمن بالله ، وقد مر بنا الحديث عن  
هذه الظاهرة عند اليونانيين القدماء ، وعند الهنود ، وعند قدماء المصريين ،  
وعند الرومان .

والإشراك يكاد يختص ببعض الأديان الكتابية . فاليهود جعلوا « عزيزاً »  
ابناً لله - سبحانه - ثم توسعوا فى اتخاذ أحبارهم أرباباً من دون الله !!  
والنصارى شاعت عند جماهيرهم عقيدة « التثليث » : الآب ، والابن ،  
والروح القدس .

ولم تسلم البيئة العربية قبيل نزول القرآن من عقيدة الإشراك التى سرت  
إليهم من الأمم الأخرى ، فعبدوا الأوثان والأصنام آلهة مع الله ، وسؤل لهم

الشیطان سوء عملهم فأروه حسناً ، وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (١) .

والإشراك والتعدد من أكثر صور الكفر وجوداً وشيوعاً ، ولهذا فإن القرآن الكريم حينما واجه هذه الظاهرة وقف أمامها طويلاً ، وتصدَّى لها كثيراً في سور ومواضع متعددة من آيات الذكر الحكيم . وبدهى أننا في هذه الرسالة الموجزة سنكتفى بما قلَّ ودلَّ من الآيات التي أحالت عقيدة التعدد والإشراك إلى وهم من الأوهام ، وأقام عقيدة التوحيد مقامها باعتبارها حقيقة « عقلية » خالصة . وإليك البيان :

### ● دليل عقلى قاطع :

دلائل التوحيد ونفى الشرك والتعدد كثيرة جداً في القرآن الحكيم ، وكل تلك الدلائل تتجه إلى العقل فتبسّط له القول أحياناً ، وتوجزه أحياناً أخرى ، ومن المواضع التي أوجز القرآن فيها دلائل التوحيد ونفى الإشراك والتعدد في أى صورة كان قوله تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ \* لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ \* لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (٢) .

تشير الآية الأولى إلى ظاهرة تعدد الآلهة فى أوهام من يدعونها .

ثم تأتى الآية الثانية فتسوق دليلاً عقلياً قاطعاً على صحة عقيدة التوحيد وبطلان ما عداها .

أما الآية الثالثة فتقرر حقيقة ظاهرة لا يرتاب فيها أحد حتى دعاة الإشراك والتعدد أنفسهم .

---

(٢) الأنبياء : ٢١ - ٢٣

(١) الزمر : ٣

وفحوى هذا الدليل العقلى هو هذا النظام الكونى المطرد : السماء فوقنا وفيها الكواكب السيّارة فى نظام محكم لا يتخلف منذ خلقت ، والأرض تحتنا وفيها الأنهار والمحيطات والبحور والزرور وعليها نعيش ، أجيال تولد ، وأخرى تموت ، وقدر الله نافذ لا يُصدّ ، وقدرة قاهرة لا تُردّ ، وأسرار كونية لا يحيط بها علم إلا علم الله الواسع .

هذا النظام دليل قاطع على تفرد منشئه وخالقه ومدبره ، ولو كان معه آلهة - كما يقولون - لفسد نظام السموات والأرض ومَن فيهن وما فيهن ، نتيجة للتصارع بين الآلهة . .

هذا يخلق وهذا يميت ، وهذا يرزق وهذا يفقر ، وهذا يُنزل الغيث وهذا يرفعه ، هذا يشرق الشمس وهذا يردها إلى مشرقها ، هذا يُرسى الجبال وهذا ينسفها ، هذا يُجرى الماء فى الأرض وهذا يجفّفه ، هذا يجئ بالصيف وهذا يحواه تواءً ويجئ بالشتاء ، وثالث يجئ بالربيع ورابع يجئ بالخريف !!

صور من التناقض والاضطراب والفساد لا حصر لها ، والصراع هو شأن كل القوى المتساوية ، ولكننا لا نشاهد فى الكون إلا نظاماً واحداً مطرداً منذ خُلِق . وهذا هو دليل التوحيد والتفرد فى الكمال والجلال لقيوم السموات والأرض .

هذا هو « الله » ذو الجلال والكمال ، يفعل ما يشاء فلا يسأله أحد لماذا فعل ؟ أما غيره من الخلق فهم مخلوقون ومقهورون له : يسألهم عما فعلوا وما تركوا ؛ لأنه المهيمن وإليه المصير .

بهذا الدليل العقلى القاطع تستقر عقيدة التوحيد فى العقول والقلوب ، وتذهب أوهام الشرك والوثنية فى كل صورة من صورها أدراج الرياح .



## ● دليل عقلى ثان :

ومن الأدلة العقلية على نفى الشرك والتعدد قوله سبحانه : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١) .

صَدَّرَ هذا الدليل بنفى اتخاذ الله ولداً ، ونفى أن يكون معه إله ، ثم قرن هذا النفى بدليله العقلى الذى فحواه :

لو كان له ولد أو كان معه إله لوقع الصراع بينهم ، فيذهب كل إله بما خلق ، ويعلو بعضهم على بعض ، ولدُمِّرَ الكون تدميراً ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فثبت أن خالق هذا الكون واحد أحد ، ليس له شريك ولا ولد .

إذن . . فماذا يطلب العقل بعد هذا من أدلة على نفى الشرك والإقرار بعقيدة التوحيد ، التى تنطق بها كل آية فى الكون ؟ لقد صدق الشاعر الذى قال :

وفى كل شئ له آية      تدل على أنه الواحد

\*\*\*

## ● المطالبة بدليل للشرك :

ومن مواجهة القرآن لإبطال الشرك بالله مطالبة المشركين بدليل على شركهم ، وقد جاءت هذه المطالبة فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، اتُّنَوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

(٢) الأحقاف : ٤

(١) المؤمنون : ٩١

فى هذه المطالبة تئيس للمشركين من شركهم . فهذا الشرك دعوى يدعونها ، وكل دعوى لا بد لها من دليل .

فطالبهم أولاً بأن يُعَيِّنوا لآلهتهم المدعاة نصيباً خلقوه من الأرض فيقولوا : هذا الجزء خلقه آلهتنا ، ولو قالوا لكذبوا ؛ لأنه ادعاء لا بد له من دليل كذلك .

ثم طالبهم - ثانياً - أن يشتوا أن لآلهتهم شركاً فى السموات ! ولو قالوا : إن لهم شركاً فيها لكذبوا - كذلك - لعجزهم عن الدليل .

ثم تخفّف معهم فطالبهم أن يأتوا بواحدٍ من اثنين : إما كتاب نزل قبل القرآن صرّح بأن لغير الله خلقاً فى الأرض ، أو شركاً فى السموات ..

فإن عجزوا فليأتوا بأثارة من علم صحيح تثبت شيئاً من تلك المدعيّات . فإذا عجزوا - وهم عاجزون لا محالة - لزمتهم الحُجّة فبطل الشرك وثبت التوحيد .

إن فى هذه الآية محاصرة للمشركين من كل جهة ، وهداية للموحدين من كل جهة كذلك . وما أصدق الشاعر الذى قال :

والدعاوى ما لم يقيموا عليها      بينات أبناؤها أدياء



### ● مثل من أنفسهم :

مواجهة القرآن - فيما تقدّم - منصبة على بطلان عقيدة الإشراك والتعدد بوجه عام ، وفى كل صورة من صوره .

والآن نحن أمام دليل عقلى آخر يواجه نوعاً خاصاً من الشرك ، وهو ما شاع عند مشركى العرب الذين عبدوا أصناماً وأوثاناً مع إيمانهم بالله ، مدّعين أنهم يعبدونهم كوسطاء بينهم وبين الله يُقربونهم إلى الله زلفى .

ومعنى هذا أنهم يُثبتون لأصنامهم وأوثانهم سلطاناً مع الله عزَّ وجلَّ ،  
 فواجه القرآن هذه الظاهرة « الشركية » مواجهة حكيمة مؤداها الإقناع العقلى  
 الناتج عن دليل واقعى محسوس ومشاهد ، فقال عزَّ وجلَّ : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ  
 مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ  
 فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
 يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

هذه الآية الحكيمة تمثل دوراً فى الدعوة بالوسائل السلمية لنبد شبهة  
 الإشراك ، وتمكين عقيدة التوحيد فى العقول والقلوب ، فهى تُرَقِّق المشاعر  
 وتهذِّب الوجدان ، وتفتح القلوب الغُلف ، وتخطب العقول المستتيرة وتضع  
 أمامها الحقائق فى رفق ولين ، لتقفز منها - بعد أن تتأملها - إلى الحق الذى  
 لا مفر منه ، وتسد - بذلك - ثغرة من المنافذ التى ينفذ منها الشيطان إلى  
 طوايا النفوس فيملأها أوهاماً وأضاليل ، فالمشركون - كما حكى القرآن عنهم  
 - يتذرعون فى عبادتهم للأصنام بأنها شفعاءهم عند الله ، جاء ذلك صريحاً  
 فى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ  
 وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ .. ﴾ (٢) .

وهم بهذا يرفعون أصنامهم إلى درجة أن يكونوا نافذى الكلمة عند الله .

هذا الاعتقاد الضال تواجهه آية الروم السالفة الذكر مواجهة هادئة ، ولكنها  
 قوية السلطان ، بالغة التأثير :

فالمثل المذكور فيها منتزع لهم من أحوال أنفسهم ، كما قال سبحانه :  
 ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ .

(٢) يونس : ١٨

(١) الروم : ٢٨

أما صورة المثل فقد استُهلّت باستفهام إنكارى هكذا : ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

أى : هل لكم من عبيدكم الذين تملكونهم شركاء فى ما آتيناكم من أموال تخافونهم إذا تصرفتم فى أموالكم دون مشورتهم أن يغضبوا عليكم ويردوا تصرفاتكم التى تصرفتموها فى أموالكم بغير مشورتهم ، كما تخافون أنفسكم إذا شارك بعض أحراركم بعضاً آخر من الأحرار ؟ إن كان ذلك واقعاً فعلاً فى حياتكم فيصح أن الأصنام تدفع عنكم ما يُراد بكم من عذاب الله .

أما إذا لم يكن واقعاً ، وأنكم لا تقيمون وزناً لعبيدكم فى كل تصرفاتكم ، فكذلك الله لا يخشى أحداً من مخلوقاته ، فليس للأصنام عنده شفاعة ، ولا يستطيعون أن يردوا من قضاء الله شيئاً : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يُفَعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (١) .

لقد وضع هذا المثل المشركين أمام باطلهم وجهاً لوجه فما عساهم أن يقولوا ؟ إن قالوا : لنا شركاء مما ملكت أيماننا ؛ كابرُوا وخدعوا أنفسهم ، وإن قالوا : ليس لنا من عبيدنا شركاء ؛ لزمهم القول ببطلان الشرك ، ولم يبق أمامهم إلا التوحيد الخالص ، إن أرادوا لأنفسهم الخير ، وإن لا فقد لزمته الحجة ، وكانوا من حصب جهنم هم لها واردون ، وفيها خالدون .

لو لم يكن فى القرآن إلا هذا القدر من مواجهة شبهة الإشراك بالله - سبحانه - لما كان للشرك أمامها مثقال ذرة من صدق ، فما بالك والقرآن حافل بصور مواجهة الشرك والتصدى له مئات المرات ، فى أساليب بيانية رائعة ؛ وحجج عقلية وعلمية قاطعة .

وفى كل موضع من مواضع المواجهة ، يهدى القرآن العقول ، وينير لها الطريق ، حتى لكأنها تشاهد الحق عياناً جهاراً . ولولا هدى الله فى كتابه

العزیز لطلال الصراع فی هذا الميدان ، الذی لا یملک القول الفصل فیہ  
إلا الوحی الأمين .

إن العقیدة الحققة ، فی الله جاء بها وحماها القرآن العظیم ، وإنك لن تجد  
على وجه الأرض موثقاً لعقیدة التوحید - بعد أن حُرِّفَت أمانة الوحی من قبل  
- إلا القرآن ، والقرآن وحده .



### ● مواجهة القرآن للإلحاد فی صفات الله :

اضطرب التفكير العقلى اضطراباً بالغاً فی تصور صفات الله ، وكان مما  
رصدناه من مظاهر ذلك الاضطراب ما مرَّ بنا من قول « أرسطو » أن الله لا یعقل  
إلا ذاته ، وأنه لا یعلم الكلّیات ولا الجزئیات ، وإذا التمسنا له « أرسطو »  
بعض العذر فی هذا الاضطراب ، فإن الفلاسفة الإسلامیین لا نملك لهم أدنى  
عذر حين جاروا « أرسطو » فی بعض ما قال ؛ لأن « أرسطو » اجتهد ولم  
یکن لدى قومه رصید من هدی الله . أما الفلاسفة الإسلامیون فكان وحی الله  
الأمین ماثلاً بین أيديهم فأداروا له ظهورهم وخالفوه ، وإن أجروا تعديلاً  
ملموساً على مذهب « أرسطو » .

قال « أرسطو » : إنَّ الله لا یعلم الكلّیات ولا الجزئیات ، ولا یعنیه من أمر  
الكون شیء : لا تدبیر ولا إحياء ولا إماتة !

فجاء الفلاسفة الإسلامیون وتابعوه على أنَّ الله لا یعلم الجزئیات ،  
وخالفوه فی أنه یعلم الكلّیات فحسب .

أخطأ « أرسطو » وأخطأ الفلاسفة معاً ، وإن تفاوتت درجات الخطأ بینہ  
وبینهم ، فالله فوق ما قالوا وما تصوَّروا . وحديث القرآن فی تقریر صفات  
الله قاطع لكل هذه الأوهام .

وحسب طُلاب الحق فی عقیدة الألوهية أن یقرأوا قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

إنَّ الكون كله : كلياته وجزئياته مهما تناهت في اللطف والصغر معلومة لله ، قبل أن تكون ، وحال أن تكون ، وبعد أن تكون .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَغْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) .

وتأمل الإعجاز العلمي في : ﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ﴾ ، أى من مثقال الذرَّة ، فقد كان العلم يعتقد أن « الذرَّة » هى أصغر حجم فى الوجود ، ثم تطور العلم وتمكن من تخطيم « الذرَّة » حتى تصير شعاعاً ، فجاء القرآن الكريم وأشار إلى هذا التطور العلمى فى شأن « الذرَّة » وقرر أن علم الله بالكائنات يعلم دقائق الأشياء وعظائنها صاعداً من « الذرَّة » إلى ما هو أكبر منها ، ونازلاً من « الذرَّة » إلى ما هو أصغر منها مهما تناهت فى الصغر وإن صارت شعاعاً وضوءاً .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣) .

أو يقرأوا قوله تعالى حكاية عن قول لقمان الحكيم لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ

تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٢) .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

هذا هو علم الله المحيط بالوجود كله ، كلياته وجزيئاته : فلن يقع شيء في الوجود إلا بعلمه ، فانظر ما بين حقائق الوحي وأوهام العقل غير المهتدى بالوحي من فروق ، وإنما وقع العقل في ما وقع فيه من أوهام ؛ لأنه تخطى دائرة عمله وخاض في ميدان لا بد له فيه من هاد يهديه ، ورائد يأخذ بيده ، وهو الوحي الأمين .

ولو كان العقل - وحده - هو وسيلة البشر لمعرفة الله تعالى وجوداً وصفاتاً لتفرقت بهم السبل ، ولسيطرت عليهم الحيرة ، وكانوا كمن يريد عبور محيط هادر لا تحده الأبصار بواسطة حزمة من الحطب لا تلبث أن تفرقها الأمواج ، وتتقاذفها الأعاصير ، فكان من لطف الله ورحمته بعباده أن أرسل رسله ، وأنزل عليهم الكتاب هادياً إلى التي هي أقوم من أمور الدنيا والدين .



## ● مواجهة القرآن لإنكار البعث الجسماني :

الإيمان بالبعث من كبريات قضايا الإيمان المنجى ، وحين تناول القرآن الحكيم عرض هذه القضية تصدَّى لخطأ جسيم وقع فيه العقل المجرد منذ فجر التاريخ النبوى ، وهو إنكار البعث جملة وتفصيلاً .

وبعد نزول القرآن الكريم وقع بعض الفلاسفة الإسلاميين فى خطأ قريب الشبه بالخطأ القديم ، فقد أنكر هؤلاء الفلاسفة بعث الأجسام وقصروا البعث على الأرواح ، وشبهتهم التى استندوا إليها فى إنكار البعث الجسماني ، غير الشبهة التى استند إليها الأقدمون فى إنكار « البعث » على أى كيفية كان : جسمانياً أو روحياً ، أو هما معاً .

والقرآن فى مواجهته لهذه الظواهر أزال كل الشبهات التى استند إليها الفريقان معاً ، ومهّد الطريق للإيمان الخالص من كل شائبة بعقيدة البعث ، وهو لم يفرض هذه العقيدة فرضاً ، وإنما أظهرها فى صورة بدهية ساطعة تتقبلها العقول بكل يسر وسهولة .



## ● شبهة منكرى البعث كلية :

ذكر القرآن الأمين شبهة منكرى البعث كلية - جسمانياً وروحانياً - فى مواضع متعددة ، وبيّن فى عبارات قصيرة بليغة فساد تلك الشبهة ؛ لإقامة الحُجّة على المنكرين المعاندين ، ولتثبيت عقيدة المؤمنين وحمائتها من وساوس الشيطان ..

ومن المواضع التى ذكر القرآن فيها شبهة منكرى البعث كلية قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَافاً أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ هِيَ هِيَ لَمَّا تُوعَدُونَ ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (١) .

ظاهر من حكاية القرآن لأقوالهم أنهم يرون البعث مستحيلاً عقلياً بعد أن يموتوا ويصبحوا عظاماً بالية ، وتراباً متناثراً . هذا ما يدل عليه قولهم الذى تقدم ، وفى مواضع أخرى يضيفون إلى هذا الاستدلال شبهة أخرى فرعية ، يؤكدون بها رأيهم فى نظرهم ، فقد حكى عنهم القرآن الكريم قولهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وقولهم : ﴿ وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

هذه الشبهة الفرعية تتلخص فى دعواهم أمام الرسل : أن يبعثوا آباءهم إن كانوا صادقين فى أن الله سيبعث الموتى من قبورهم ، وهذا تكذيب منهم بالبعث ، وكفر بالحياة الآخرة .

وقالوا فى موضع ثالث فى الآية الآتية : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .. ﴾ (٤) .

كما حكى عنهم القرآن فى موضع آخر كفرهم بالحياة الآخرة فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. ﴾ (٥) .

(٣) الجاثية : ٢٥

(٢) الدخان : ٣٤ - ٣٦

(١) المؤمنون : ٣٥ - ٣٧

(٥) سبأ : ٣

(٤) النحل : ٣٨

وقال سبحانه حاكياً عنهم : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا .. ﴾ (١) .

إذا نظرت فى مجموع هذه الآيات خلصت إلى أن استحالة البعث عند هؤلاء الكفار استحالة عقلية بنوها على أصل وفرع :

الأصل : هو استحالة إعادة الحياة بعد الموت وما يعترى الأجسام من فناء وتبدل .

والفرع هو : لو كان البعث ممكناً فلم لم يُبعث آبائهم بعد موتهم ؟ ثم انتهت عقولهم إلى أن دعوى البعث أسطورة من أساطير الأولين !!



### ● صورتان من المواجهة المفحمة :

أبطل القرآن الحكيم شبهات منكرى البعث ، وقضى عليها قضاءً مبرماً .  
وتوخياً للإيجاز ، نكتفى بذكر صورتين للمواجهة المفحمة وردتا فى القرآن العظيم .

#### \* الصورة الأولى :

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا \* قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا \* أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ . فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٢) .

من منهج القرآن الأمين حين يتصدى لدعاوى خصوم الدعوة أن يذكر أقوالهم وشبهاتهم بكل أمانة وصدق ، ثم يكر عليها فيجعلها وهماً من الأوهام ، وفى هذه المحاوره ذكر القرآن شبهة منكرى البعث الذين استندوا فى هذا الإنكار إلى استبعاد إعادة الحياة بعد صيرورة الميت عظاماً ورُفاتاً ، ثم

يقول لهم فى بداية المواجهة : ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ \* أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ  
فِي صُدُورِكُمْ ﴾ .

استبعدوا البعث وقد صاروا عظاماً ورُفَاتاً . هذه شبهتهم ، والعظام  
والرُفَات مادتان للإنسان وليستا غريبتين عليه ، فدعاهم القرآن أن يكونوا  
حجارة أو حديداً ، لأن الحجارة والحديد مادتان غريبتان عن الإنسان ،  
أو يكونوا أى خلق آخر لا صلة له بما كانوا عليه وهم أحياء . قال الله لرسوله  
أن يقول لهم هذا ، فإذا قالوا له : مَنْ يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً ، أو أى  
خلق آخر مغاير لحقيقتنا من كوننا عظاماً ولحماً ودماً ؟ كان الجواب : ﴿ الَّذِي  
فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

هذه الجملة المكونة من أربع كلمات قصار نسفت شبهاتهم نفساً ولم تبق  
لها أى أثر .

فهم قد استعظموا إعادة الحياة إليهم ، وقد كانوا أحياء لهم أصل فى  
الوجود ، فكيف يعجز مَنْ خلقهم أول مرة من العدم عن إعادة الحياة إليهم  
بعد أن كان لهم وجود ظاهر ، ومثال محسوس ؟

القرآن - هنا - يضع أمامهم حقيقة من حقائق العقل يُسَلِّم بها ولا يملك  
أدنى شبهة لعدم التصديق بها ، فالعقل لا ينكر على مَنْ صنع شيئاً ثم زال أن  
يعيده مرة أخرى ؛ لأن صورته حاضرة فى ذهنه ، وقدرته قد مكنته من صنعه  
أولاً . فالإعادة - إذن - أيسر وأهون .

فلو أن إنساناً رسم شكلاً هندسياً بديعاً ، ونحن ننظر إليه وهو يرسمه ،  
ثم محاه وقال : سأرسمه مرة أخرى كما كان ، فإننا لا نشك فى قدرته على  
رسمه بدليل أنه رسمه فى مرة سابقة .

أو قام آخر بحل معادلة رياضية معقّدة ، ثم محاه ما كتب وقال : سأعيد

الحل مرة أخرى ، فمن يملك تكذيبه فى هذه الدعوى ؟ لا أحد يملك ذلك من العقلاء إلا من أصيب بخلل فى عقله .

وهكذا كان قوله تعالى : ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ دليلاً عقلياً مفحماً أبلغ ما يكون الإفحام ، إنَّ قدرة الله على الخلق الأول هى دليل قدرته على الخلق الثانى ، هذا هو حكم العقل السليم ، فهل - بعد هذا - يصبح لمنكرى البعث حيلة فى الاستمرار على الإنكار ؟ كلا .. وألف ألف كلا .

وهكذا ينسف القرآن فى هذه المواجهة الوجيزة أباطيل المبطلين ، ويلزمهم الحجة ، ويذرهم فى غيهم يعمهون .

\* \*

### \* الصورة الثانية :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ \* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ضارب المثل فى الآية هو العاص بن وائل ، جمع عظماً وأتى به رسول الله ﷺ ثم فتت العظم وقال لرسول الله ﷺ : أحيى الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم يمتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » ، ثم نزلت الآيات من آخر سورة يس .

استبعد هذا الكافر إحياء الموتى وقد بليت العظام ، فجاءت الآيات المذكورة تدحض شبهته بدليل عقلى فطرى :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ \* الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ ﴾ \* أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ \* إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \* فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾ .

صورة هذه المواجهة تتفق في المبدأ العام مع الصورة الأولى ، إذ هما معاً تضعان أمام العقل الدليل والبرهان المقنع على أن الله قادر على إحياء الموتى بدليل أنه خلقهم أولاً ولم يكن لهم وجود ، فكيف يعجز أو يستحيل عليه إحيائهم مرة أخرى بعد أن كان لهم وجود ومثال محسوس ؟

وتضيف هذه الصورة دلائل أخرى تتضافر على إقناع العقل بصحة البعث ، وتمحو شبهات منكريه .

وهذه الدلائل كما جاءت في الآيات :

١ - في الآية التي صور القرآن فيها شبهة منكر البعث جاءت هذه العبارة الحاسمة البليغة : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ . . أى أن ضارب المثل حين استبعد على الله إحياء الموتى نسي أن الله خلقه وجعله بشراً سوياً . فكونه مخلوقاً لله من العدم وبدون سبق وجود دليل قاطع على صحة الإحياء مرة أخرى ، ولو كان هذا المنكر للبعث تأمل هذا الواقع لأقلع عن إنكاره . وفى هذا تعريض بغاوة المنكر الذى حكى القرآن الأمين قوله .

٢ - أن الله قادر على كل خلق ، وليست قدرته ولا علمه مقصورين على خلق الإنسان وحده .

٣ - وأن من عجائب خلقه أن جعل لعباده من الشجر الأخضر ناراً ، والخضرة والنار ضدان .

والآية تشير إلى حقيقة من حقائق العلوم التي اكتشفت بعد نزول القرآن بقرون طوال ، وهى تولد « الأوكسوجين » فى عملية التمثيل الضوئى من النباتات المختلفة ، و« الأوكسوجين » عامل مساعد على اشتعال النار ، وإذا خلا منه مكان فمن المحال أن تتولد النار .

٤ - أن الله خَلَقَ السموات والأرض ، وَخَلَقَهما أكبر من خلق الناس ، فكيف يعجزه إعادة الحياة إلى الموتى .

٥ - أن الله إذا أراد شيئاً كان ذلك الشئ بمجرد أن يقول له : كن .

٦ - أن الله هو المصّر للكون كله : إيجاداً وإعداماً ، وإحياء الموتى صورة سيرة من تصرف الله فى كونه العظيم .

وهكذا يَسِّرُ القرآن للعقول حقيقة الإيمان بالبعث ، ودحض فى رفق وحكمة جميع الشبهات ، ولم يدع لمنكرى البعث ذرة من شبهة تصلح متمسكاً لهم فى كفرهم .

ثم يؤكد القرآن هذه الحقيقة فى مواضع أخرى منها : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ، وَعَدًّا عَلَيْنَا ، إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٢) .

ثم يقول : ﴿ مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣) .

إن إعادة الحياة إلى جميع الموتى من لدن خلق آدم إلى قيام الساعة هى فى قدرة الله كخلق نفس واحدة وكبعث نفس واحدة .

﴿ وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نَفِّخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (١) .



### ● مواجهة القرآن لشبهة الفلاسفة :

أشرنا من قبل إلى أن الفلاسفة ينكرون البعث الجسماني ، وأن شبهة هذا الإنكار عندهم غير شبهة الدهريين الذين فرغنا من دحض القرآن لشبهاتهم ، وأن الفلاسفة أنكروا البعث الجسماني لأن الأجسام - كما قالوا - غير متناهية ، وأن المكان متناه لا يتسع لجميع أجسام الموتى إذا أعيدت إليها الحياة مرة أخرى ، وفي العنوان الذي أثبتناه : « مواجهة القرآن لشبهة الفلاسفة » شيء من التسامح لأن الفلاسفة ذهبوا هذا المذهب بعد نزول القرآن ، والمواجهة إنما تكون لموقف سابق على نزول القرآن أو مصاحب له . بيد أن في القرآن آية لو كان الفلاسفة قد تأملوها لما ساغ لهم أن يقولوا ما قالوا . هذه الآية تدحض - مقدماً - ما قاله الفلاسفة بعد انتهاء عصر النزول . وهي قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٢) .

اختلف المفسرون في تبديل الأرض والسموات ، والأمر عندهم يدور حول معنيين : إما تبديل في ذوات الأرض والسموات ، وإما تبديل في أوصافها . والمعنى يتسع لأبعد مما قاله المفسرون ، فليس بمنكر أن يراد بالتبديل المنصوص عليه في الآية أن يكون الامتداد والتوسيع ، يدل على هذا قوله في وصف الجنة : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

(٣) آل عمران : ١٣٣

(٢) إبراهيم : ٤٨

(١) الزمر : ٦٨

فإذا كان عرض الجنة هو امتداد السموات والأرض فما بالناس بالطول كيف يكون ؟

كما جاء النص على التوسيع صريحاً في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (١) .

وأياً ما كان الأمر فإن شبهة الفلاسفة في إنكار البعث الجسماني شبهة خفيفة الوزن ، بل هي وهم خالص وقع فيه هؤلاء المفكرون ذوو العقول الكبيرة . وهي - في الوقت نفسه - دليل على أن العقل - وحده - ليس محل ثقة في تصور الغيبيات أو ما وراء الطبيعة . فلا بد له - إذن - من هاد يهديه .



### ● تعقيب :

علمنا مما تقدم كيف اضطربت العقول في تصورها للأمور الغيبية وفي مقدمتها عقيدة الألوهية ، ثم البعث ، وقلنا : لو كانت وسيلتنا الوحيدة في شأن العقيدة هي العقل لما اهتدت البشرية إلى عقيدة صحيحة تطمئن لها القلوب ، ويتحقق بها الإيمان المنجى ، وتعيّن أن يكون هادينا إلى العقيدة الحقة هو وحى الله : « الإيمان » ، وأن دنيا الناس لا بد لها من دين الله وهداه ، ليستقيم أمرها ، ويحيى من حيى عن بيّنة ، ويهلك من هلك عن بيّنة . فعقيدة الألوهية لا تُعرف حق المعرفة إلا إذا اهتدى العقل بما أنزل الله ، فإذا زهد العقل في وحى الله ، وسُنّة رسوله ﷺ ضلّ وأضلّ .

وكذلك الحال في عقيدة البعث ، فقد قاد الوحي الصادق العقل فيها ، وأزال كل شبهة تتعلق بها ، فقد وقفنا على حقيقة شبهات منكرى البعث قبل الفلاسفة الإسلاميين ، وأنهم كانوا يرونه مستحيلاً عقلياً .

فجاء الوحي الأمين ، ووضع أمامنا حقيقتين بارزتين :

أولاهما : أن البعث مطلقاً : جسمانياً وروحانياً - من حيث حكم العقل -  
ممكن عقلياً ، وليس مستحيلاً عقلياً كما توهم الدهريون .

والثانية : أن البعث من حيث ورود الخبر الصادق به إنما هو واجب محتم  
الوقوع حسبما هو في علم الله .

وبهذا يلتقى حكم العقل وحكم الشرع في أخطر قضية من قضايا الإيمان  
.. بعد الإيمان بالله وكتبه ورسله .

وصدق الله العظيم القائل لخاتم الرسل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ  
أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ  
مِّنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .



## المجال الثانى : التشريع

### • تقديم :

عرفنا مما تقدم أن مجال العقيدة الدينية ، ليس مجالاً عقلياً خالصاً ، وأن العقل إذا انفرد بالبحث فيه كان خطؤه أكثر من صوابه ، وأن اختلاف العقول فى هذا المجال قد يؤدى إلى القول بالشئ ونقيضه ، وقد يشط العقل شططاً شنيعاً فى كثير من تصوراته للأمور الغيبية أو ما وراء الطبيعة . فكان لا بد للعقل من هادٍ يهديه ويرشده ، ذلك الهادى هو وحى الله الصادق الأمين . والآن نوجز الحديث عن مجال آخر لا يصلح العقل للخوض فيه إلا بقيادة الوحى الأمين . . ذلك المجال هو :

### التشريع للدنيا والدين

بعد أن تمتلئ القلوب بالعقيدة الصحيحة تكون قد وضعت أقدامها على أول الطريق المستقيم ، ولكن لا بد من إنارة هذا الطريق بوضع مبادئ وقيم للسلوك الإنسانى ؛ لأن معترك الحياة ضخم وعميق ومعقد ، تختلط فيه الأمور وتتشابه ويصعب التمييز بينها ، فلا يدرك الإنسان ماذا يفعل ، ولماذا يفعل ؟ ولا ماذا يترك ، ولماذا يترك ؟ ومتى يكون العمل واجباً ، ومتى يكون مرجحاً ؟ ومتى يستوى طرفا العمل والترك ؟ ولا يدرك متى يكون ترك العمل واجباً ، ومتى يكون أنزل من الوجوب ؟

هذه المجالات الخمسة لم يؤهل العقل للانفراد بتحديددها ، وهو وإن أدرك بعضها جهل أكثرها ، وحتى فيما يُتاح له إدراكها فإن إدراكه فيها قاصر قصوراً ملحوظاً .

وقبل أن نُبَيِّن الأهمية القصوى لدين الله فى مجال التشريع ، نعرض فى

إيجاز صوراً من التشريع العقلى الوضعى لتوضح لنا مدى حاجة البشر إلى دين الله ووحيه ورسوله ، فى هذا المجال الحيوى المرتبط بالسلوك العملى لحركة الحياة الإنسانية .



### ● صور من التشريعات الاجتماعية :

نقصد من التشريعات الاجتماعية ما يتصل بحقوق الإنسان ، وبدهى أن التشريع فى كل أمة كان ظل عقيدتها ، وأن العقيدة الهابطة يصدر عنها تشريع هابط منحط مثلها ، لأن الظل لا يستقيم إذا كان مصدره معوجاً .

وقد حفظ لنا وعى التاريخ نماذج منحة جائرة كانت تشيع فى بعض الأمم القديمة ومنها ما لا يزال شائعاً فى بعض البيئات المعاصرة :

#### \* الهند :

الكتب المقدسة للهنود البرهميين تقسم الناس أقساماً متباينة فى الفضل والضعف ، فتذكر أن « براهما » خلق البرهميين من فمه ، والفم أظهر ما فى جسم الإنسان ، وخلق الكشترين من ذراعه ؟ وخلق الفيسائيين من فخذه ، ثم خلق السودرائين من قدمه .

وأن أفضل هذه الطبقات هم البرهميون ، يليهم الكشثريون ، ثم الفيسائيون ! أما السودرائيون فهم أخط الطبقات .

وبناء على هذا التقسيم وزَّعوا الوظائف على الوجه الآتى :

فالبرهميون - أعلى الطبقات - لهم الوظائف القيادية العليا .

والكشثريون لهم وظائف الحرب والقتال ورعاية الأمن .

والفيسائيون يختصون بفلاحة الأرض وتربية الماشية .

أما السودرائيون - أخط الطبقات - فلهم وظيفة واحدة هى أن يكونوا عبيداً

وخدماً للطبقات الأخرى . وهم أنجاس لا يجوز لمسهم ولا الأكل معهم ،  
وعلاقة المجتمع معهم علاقة المالك بالمملوك ، أو السيد بالعبد !!



### \* اليونان :

لم يكن التشريع اليونانى يختلف عن التشريع الهندى إلا قليلاً ، ففى  
التشريع الهندى البرهمى كانت الطبقات أربعاً . أما اليونانى فمكوّن من  
طبقتين فحسب : طبقة عليا فاضلة هم اليونانيون وحدهم ، وطبقة سفلى  
منحطة هم من عدا اليونانيين من شعوب الأرض ، وبنوا هذا التقسيم على  
عقيدة كاذبة ، هى أن الآلهة خلقت فصيلتين من الناس :

فصيلة كرمّتها بالعقل والإرادة والحرية ، وهم اليونانيون !

وفصيلة مسلوية العقل والإرادة والحرية ، قريبة من الحيوانات العجماء ،  
وهم الشعوب الأخرى .

الفصيلة الأولى هى خليفة الآلهة فى الأرض ، والفصيلة الثانية خلقت  
لتكون عبيداً وخدماً للفصيلة الأولى .

الفصيلة الأولى لها الوظائف العليا الراقية ، أما الفصيلة الثانية فلا عمل لها  
سوى الأعمال الجسمية الشاقة .



### \* الرومان :

حذا التشريع الرومانى حذو الهندى واليونانى ، بيد أنه إلى اليونانى أقرب ،  
فالرومان هم الطبقة الراقية ، وغيرهم طبقة وضعية ، وأنهم مخلوقون ليكونوا  
أرقاءً وخدماً دائماً لأسيادهم الرومان .



## \* أهل الكتاب :

وأهل الكتاب - يهوداً ونصارى - رغم ما جاءتهم به رسلهم وكتبهم المقدسة فإنهم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ولا يرون لغيرهم ما يرونه لأنفسهم - وبخاصة اليهود - من الفضل والقداسة .



## \* العرب :

ولم يسلم العرب - قبل الإسلام - من هذه التفرقة العنصرية ؛ فقد كانوا يرون غيرهم من الشعوب أئماً وضيعة ، ناقصة الإنسانية ، ويسمون من عداهم بـ « العجم » ، وينظرون إليهم نظرة احتقار واستخفاف ، وكانوا يضمنون بيناتهم أن يتزوجن من غير العرب ، ويرون أن مصاهرتهم لغيرهم إهانة إلى قبائل العرب جميعاً ، وموقعة « ذى قار » دارت بين العرب والفرس بسبب هذه المصاهرة .

هذه صور سريعة للتشريع الوضعى العقلى ، سقناها شواهد على أن التشريع ليس من مجالات العقل ، وأن العقل حين مارس أنماطاً من التشريع ضلَّ سواء السبيل ، والنظر العابر فى النماذج التى سقناها يرينا أن حقوقاً عظيمة للإنسان أهدرت فى هذا التشريع الذى لم يستند إلى خطة حكيمة فى هذا المجال . ومن تلك الحقوق التى أهدرت فى النماذج المذكورة ثلاثة حقوق هى سمة كل تشريع سام ، وهى :

- ١ - المساواة .      ٢ - الحرية .      ٣ - العدل .

وحين يخلو تشريع ما من هذه الحقوق ، يصبح نظاماً همجياً خالياً من كل احترام أو ولاء صادق . ويقوم فى لُحمته وسُدَّاه على الأناية والعنصرية ، ويحمل بين ثناياه عوامل هدمه وتدميره .



## ● صور من تشريعات نظم الحكم :

مُنَى العالَم قديماً بأنماط شَتَّى من نظم الحكم ، وعلى الرغم من أن بعض الشعوب عرفت النظام الديمقراطي فإن واقع الحكم كان يتنافى مع هذا النظام ، فوراثة الحكم كانت هى السائدة بالنسبة للرئيس الأعلى ، أما معاونوه فكانوا يُختارون على أسس الحسب والنسب وليس على أساس الأصلح ، وكان ذو الحسب والنسب تُحفظ لهم الوظائف العليا بلا عمل يؤدونه ، والرئيس الأعلى - ملكاً أو أميراً - هو صاحب الحكم المطلق فى شئون الرعية ، سواء فى ذلك الدول المجوسية كالفُرس ، أو الكتانية كالروم والبلاد التى كانت تدور فى فلكها .

وأسوأ ما كان معروفاً فى تلك النظم أن « الحاكم » له كل حق على المحكومين وليس عليه أدنى حق لأحدٍ من الرعية .

ويرى بعض الكاتين - وهو على حق - أن النظام الديمقراطي لدى الحكومات القديمة التى عرفته لم يكن نظاماً موضوعاً لتحديد الحقوق والواجبات الإنسانية ، بل كان إجراء لحماية الحكام من الأخطار الداخلية والخارجية ، وأن الحكومات نفسها كانت تهدف إلى مصلحة الحكام ، ولا تقيم وزناً لمصلحة المحكومين .

أما الديمقراطية التى معناها : حكم الشعب للشعب ، فلم يكن له وجود فى الواقع .

وحتى فى الفكر السياسى الدينى لأهل الكتاب - اليهود والنصارى - انحرفت نظريات نظام الحكم انحرافاً خطيراً : فرفعوا الحاكم إلى درجة الوكالة عن الله فى الحكم ! أو الحاكم مفوض من الله بالحكم فهو ظل الله فى الأرض .

هذه الاتجاهات تجعل الحاكم طاغوتاً هبط من السماء ، ومما زاد الطين بلة أن يُرى هذا الحاكم معصوماً من الخطأ فى القول أو فى الفعل !

ونسأل : أين دور المحكومين أو حقوقهم فى ظل هذه النظم ؟ والجواب  
الحتم : لا دور لهم ولا حقوق ، وإنما عليهم السمع والطاعة بلا أدنى نقاش  
أو تردد !

وهكذا تظل الرعية فى ظل هذه النظم قطعاناً من الماشية لا تملك رد سكين  
شحذها راعيها لذبحها ، ولا يرثى لها أحد إذا قطعت أعناقها .  
ولو ظلّ العالم محروماً من هدى الله ودينه إلى الآن لظل رقيقاً لطائفة من  
الناس ، لهم كل شئ فى الحياة وليس عليهم أى شئ للحياة .



### ● صور من التشريعات الكتابية :

المقصود من التشريعات الكتابية : النظم التى اشترعها أهل الكتاب من  
اليهود والنصارى ، مما ليس له أصل فى الكتب المنزلة على أنبيائهم .

\* ومن ذلك أنهم اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أرباباً يعبدونهم من دون  
الله ، والمراد من هذه العبادة هى طاعتهم فى ما يُشرعون لهم من تشريعات  
مخالفة لدين الله ، وليس المقصود منها الركوع والسجود .

\* ومنه أن اليهود يُحلّلون الإقراض بالربا مع غير اليهود ، أما مع اليهود  
فالإقراض يكون بدون ربا .

\* ومنه أن اليهودى إذا احتاج وباع مسكنه ليهودى آخر ، فإن وجد ثمنه قبل  
مرور عام ردَّ إليه الثمن وأخذ مسكنه . وإن كان المشتري أجنبياً - غير يهودى  
- ردَّ إليه الثمن متى وجده ولو بعد سنين طوال ، وله أن يُقدَّر أجره عن سنة  
ظلَّ المسكن فيها تحت يد المشتري الأجنبى ، ثم يخصم جملة الإيجار من  
الثمن الذى قبضه ويرد إليه باقيه !!

\* وإذا تزوجت يهودية رجلاً غير يهودى صارت نجسة وحقيرة ! وحرام  
عليها أن تأكل طعام اليهود ، فإذا مات زوجها أو طلقها عادت إليها الطهارة

مرة أخرى إذا لم تكن أنجبت من الزوج الأجنبى أولاداً ، أما إذا أنجبت فإنها تظل نجسة حقيرة ، وإن مات الزوج أو طلقها !!

\* واليهودى إذا تزوج أجنبية - مسلمة أو نصرانية - صار نجساً حقيراً !

\* إن الرب - عندهم - جعل كل الشعوب من غير اليهود وكل ثرواتهم خبزاً لليهود شعب الرب المختار !

أما النصارى .. فمن بدع التشريع - عندهم - تقديس البابوات وأنهم معصومون من الخطأ القولى والفعلى ، وأنهم وحدهم يملكون تفسير الكتاب المقدس ، ولهم حق مخالفته ، فالرأى والحكم لهم ، وأن رجال الدين يملكون حق التحريم والتحليل ، فما رأوه حلالاً كان حلالاً فى السماء ، وما رأوه حراماً كان حراماً فى السماء وإن خالف الأناجيل المقدسة عندهم .

وأن العاصى لا تُقبل منه توبة إلا إذا جلس أمام « القس » على كرسى الاعتراف ، وأباح له بكل خطاياہ !!

ومهزلة صكوك الغفران شاهد آخر على تردى التشريع عندهم ، وأصدق وصف لخرافة صكوك الغفران أن رجال الدين النصرانى كانوا يبيعون « الجنة » فى المزاد العلنى « فمن يدفع كثيراً يملك قصوراً فاخرة فى الجنة ، ويُعطى « صك » مكتوب وموقع عليه من البائعين ، ليتسلم حصته التى اشتراها من الجنة بعد الموت مباشرة !

ومن المضحك أن من يملك صكاً من « صكوك الغفران » يصبح غير مكلف بشئ من الأوامر والنواهى ، فليفعل من المعاصى ما شاء لأنه صار مغفوراً له غفراناً أبدياً !!

\* \*

## • صور من التحليل والتحریم عند العرب :

والعرب قبل الإسلام حينما تصدّوا للتشريع أتوا بكل حمق وجهل ، وأبرز ما حكاه القرآن عنهم ما ورد فى سورتي الأنعام والمائدة ، حيث كانوا يُحرّمون أنواعاً من الماشية فلا تُذبح ولا تُؤكل ، وكانوا يُحلّلون أنواعاً لذكورهم ويحرّمونها على إناثهم ، وإذا بحثت عن علّة للتحليل أو التحريم أعتيك الخيل ، ثم رجعت ولم تفهم شيئاً قط يصبح به المحرّم حراماً فعلاً ، ولا المحلّل لم كان حلالاً مرة وحراماً أخرى ؟!

هذا الاضطراب فى النماذج التشريعية التى أوجزنا لك الحديث عنها ، سبب الأسباب فيه انفراد العقل بالخوض فيها بلا هاد يهديه ، والعقل مهما عظم فإنه لا يدرك - وحده - علل التحريم والتحليل . حتى الرسل لم يكونوا يملكون تحليل شئ أو تحرّمه إلا بوحي من الله أو إلهام فى قوة الوحي المنزل .

فكما أن الوحي هو المصدر الرئيسى الذى تُتلقى عنه العقائد الدينية أصولاً وفروعاً ، ولا يعلو صوت على صوته فى بيانها وتقريرها ، فإنه هو المصدر الوحيد فى شئون التشريع ، لأن الله وحده هو الذى يعلم المصلح من المفسد ، والعقل يتلقى عنه مبادئ التشريع العام والخاص كما تلقى عنه أمور العقيدة سواء بسواء .



## • أقسام النشاط البشرى فى التشريع الإلهى :

حصر التشريع الإلهى النشاط البشرى كله فى خمسة أقسام يمكن وضع ضوابط لها فى الرموز الآتية :

١ - أَفْعَلْ : وهو فعل أمر يندرج تحته نوعان من النشاط البشرى هما :

( أ ) الواجبات : وهى الأعمال الواجب الإتيان بها من الفرائض الدينية

كالصلاة والصيام والحج والزكاة ، والواجبات الأخرى كالسعى على المعيشة والجهاد إذا وجب ، والتزام الصدق فى الأقوال والوفاء بالعهود .

(ب) المندوبات : وهى الأمور التى يترجَّح عملها على تركها من أبواب الخير كالإحسان فى المعاملات ، والتطوع فى العبادات ، والازدياد من تحصيل المعارف والعلوم ، والإكثار من التصدق على المحتاجين ، وذلك لأن أبواب الخير واسعة وليس فى استطاعة إنسان أن يفعل كل الخير ، فليأت منه بما يستطيع .

٢ - لا تَفْعَلْ : وهو فعل مضارع دخلت عليه « لا » الناهية ، ويندرج تحت هذا الضابط نوعان من السلوك البشري :

(أ) النشاط المحظور ممارسته : وهو المحرَّم كخيانة الأمانة ، وعقوق الوالدين ، والإساءة إلى الجار ، وخلاف الوعد ، ونقض العهد . . إلخ .

(ب) النشاط الذى يكون تركه أولى من فعله كتأخير الواجبات عن وقتها ، والانتفاع بما فيه شبهة .

٣ - افْعَلْ أو لا تفعل : فعلا أمر ونهى ، ويندرج تحته نوع واحد من السلوك البشري ، وهو « المباح » الذى يستوى طرفا الإتيان والترك فيه . بمعنى أن تركه لا يترتب عليه عقاب لتركه ، والإتيان به يُثاب عليه فاعله ، وليس المراد فى المباح استواء طرفى الفعل والترك مطلقاً .

تحت هذه الضوابط الثلاثة حصر الوحي أو التشريع الإلهي كل ضروب النشاط البشري كبيرة وصغيرة . فلن يقع عمل أو يترك خارج هذه الضوابط .



## الفروق بين التشريعين

ومعنى هذا أن التشريع فى دين الله محيط بكل حركة الحياة فى كل زمان ومكان . وهذا أحد الفروق الضخمة بينه وبين التشريعات البشرية الوضعية التى لا تستند إلى مصدر حكيم من مصادر التشريع .

أما الفرق الثانى بين التشريع الإلهى وبين تشريعات البشر الوضعية ، فإن التشريع الإلهى تشريع موضوعى عام لكل زمان ومكان وجنس ، بينما كانت التشريعات الوضعية الفعلية محاطة بحدود الزمان والمكان والجنس ، ولا تزال كذلك إلى عصرنا الحاضر ، فكل دولة تضع تشريعاً خاصاً بها لا يتعداها إلى غيرها .

والفرق الثالث : أن التشريع الإلهى موضوع لتحقيق السعادة لكل الناس ، بينما التشريعات الوضعية العقلية تستهدف جماعة معينة مرتبطة بحدود البيئة المكانية والزمانية والجنسية ، ولا يدخل فى حسابها غيرهم من البشر .

ورابع الفروق : أن التشريع الإلهى يرسم الطريق الواضح المستقيم لتحقيق الأمن والسعادة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، أما ما عداه من التشريعات البشرية فلا يهتم إلا بجانب من جوانب الحياة الدنيا الضيقة .

وخامس الفروق : أن التشريع الإلهى يقوم على منهج حكيم ودقيق ويتوخى المصالح الحقيقية العامة والخاصة فى كل التكليف - عبادات أو معاملات أو سلوكيات . وأن لكل حكم تشريعى فيه علّة من أجلها كان الحكم ، ولكل حكم تشريعى فيه حكمة تشريع هى ثمرة تطبيق الحكم والأثر المترتب عليه فعلاً وتركاً .

وسادس الفروق : أن التشريع الإلهى مصدره هو الله المحيط علماً بكل

شئ ، فهو وحده يعلم ما يصلح الحياة وما يفسدها ، لا يعزب عنه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، والتشريع البشرى - أياً كان - مصدره العقل ، والعقل قاصر عن الإحاطة بحقائق الأمور ، تلبس عليه حيناً ، ويعمى عنها حيناً ، وما سبقت إليه الإشارة من التشريعات العقلية دليل قاطع للعقل نفسه بأنه غير مؤهل للتصدى لهذه المهمة التى هى من اختصاص العليم الخبير . فحاجة الناس إلى دين الله فى شئون التشريع كحاجتهم إليه فى أمور العقيدة . وأكبر نكسة يعيش فيها العالم الآن - مسلمون وغير مسلمين - هى تعطيل شريعة الله ومنهجه القويم فى الحياة ، واستحداث شرائع وقوانين عقلية خطؤها أضعاف أضعاف ما فيها من صواب : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

\* \* \*

## التشريع الإلهي

لا بد للإنسانية من التشريع الإلهي لتنظيم الحياة تنظيمًا حكيماً يرقى بها إلى أعلى عليين ؛ لأن لتشريع الإلهي يوجه الجماعات والأفراد - دائماً - إلى التي هي أقوم ، والقرآن الحكيم قد أشار إلى أن هدى الله ودينه دعوة للحياة والعلم والتزكية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ۞ (١) .

وليس المراد بـ « الحياة » في الآية بعث الأرواح في الأجسام ، بل المراد أن تعاش هذه الحياة الجسدية حياة أخرى فوق حياة الجسد ، حياة قوامها الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وطاعة الله ورسله فيما أمر أو نهى ، وابتغاء مرضاته في كل ما نأتى وما نذر .

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ۖ ۞ (٢) .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ۖ ۞ (٣) .

ذلكم هو فضل هدى الله ودينه على من آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، أما من أعرض عن هدى الله ودينه فلا حياة له إلا حياة الأنعام والدواب ، بل هم أضل من الأنعام والدواب ، وفيهم يقول الحق : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۖ ۞ (٤) .

(٢) الجمعة : ٢

(١) الأنفال : ٢٤

(٤) الأعراف : ١٧٩

(٣) الإسراء : ٩

بل هم ليسوا أحياء ، وإن أكلوا وشربوا ودَبُّوا على الأرض : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدَّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (١) .  
والتشريع الإلهي يندرج تحته ثلاثة أنواع :

الأول : ما أنزل الله في كتابه العزيز من أصول كلية للتشريع ، أو أحكام تفصيلية لبعض المشكلات ، وقد عُنِيَ بعض الفقهاء بتحديددها وشرحها في كتب لهم تحمل عنوان : « أحكام القرآن » ، كما عُنِيَ بها المفسِّرون لكتاب الله العزيز كابن العربي والجصاص من القدماء ، وغيرهم من المحدثين .

الثاني : ما صحَّت نسبته إلى رسوله الأمين من أقوال وأفعال ، وتقريرات لأقوال وأفعال وقعت على مرأى منه وسمع ، فأقرها ولم ينكرها على فاعليها وقائلها ، وقد عُنِيَ كثير من العلماء بهذه الأحاديث وأفردوا لها كتباً خاصة كالإمام مالك ، والزيلعي ، وابن حجر ، وابن خزيمة ، وابن دقيق العيد .

الثالث : الأحكام الاجتهادية للنصوص الاحتمالية المعنى ، والأحكام التي استنبطها الفقهاء للوقائع والمشكلات التي لم يرد نص تشريعي في بيان حكمها . وهذا النوع هو أكثر أحكام الشريعة ، وهو وإن كان عملاً عقلياً ، معدود من التشريع الإلهي لأن سنده إما كتاب الله ، أو سُنَّة رسوله ، وليس عملاً عقلياً خالصاً .

ومن هذا النوع العقوبات التعزيرية على الجرائم التي لم يرد نص تشريعي في تحديد عقوبات معينة لها ، والأمر فيها منوط بالعلماء والأمرء :  
العلماء يُحدِّدون العقوبات على ضوء الشريعة ، والأمرء يضعونها موضع التنفيذ .

وكل ما يُشترط فى العقوبات التعزيرية أمران :

الأول : أن تكون العقوبة رادعة لمرتكب الجريمة .

والثانى : أن تكون مناسبة للجريمة .

فلا نوقع عقوبة شديدة على جريمة خفيفة ، ولا عقوبة خفيفة على جريمة شديدة .

وإلى هذه الأنواع الثلاثة يشير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. ﴾ (١) .

فطاعة الله المأمور بها هى العمل بما فى كتابه العزيز .

وطاعة الرسول هى العمل بما صحَّ سنده وامتته من سُنَّته - صلى الله عليه وسلم .

أما أولو الأمر فطاعتهم مشروطة بالتزامهم بما فى الكتاب والسُّنة ، ولذلك لم تفرد طاعتهم كما أفردت طاعة الله ورسوله ، بل أدرجت فى طاعة الله ورسوله ، وأولو الأمر لا بد أن يكونوا من المؤمنين لقوله تعالى : ﴿ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .. أى لا من غيركم .

فالعلماء مطالبون فى كل عصر ومصر باستنباط الأحكام المناسبة لكل الوقائع والمشكلات التى تَجِدُّ وليس فى الكتاب ولا فى السُّنة نص قطعى الدلالة على حكمها ، فيجتهد العلماء فى استنباط حكمها مستنديين إلى الكتاب والسُّنة وما قرره الأصوليون من قواعد بالنظر فيهما .

والأمراء مطالبون بوضع ما يقرره العلماء موضع التنفيذ ، وليس لهم -

العلماء والأمرء - أن يحتكموا إلى مصادر فى التشريع غير مصادر الشريعة الإلهية . وكل قانون أو قاعدة تخالف أحكام الشريعة ومقاصدها فهى باطلة ، والعمل بها باطل .

والأعمال العقلية - أياً كانت - يجب أن تخضع فى التشريع لهدى الله ودينه ضماناً لصحة العمل ، وتجنباً للانحراف الذى كثيراً ما يقع فيه العقل إذا انفرد فى هذا المجال الدقيق .

\* \* \*

## عظمة التشريع الإلهي

مرّت بنا نماذج من التشريعات البَشَريّة في مجالات متعددة ؛ في الاجتماع ، ونظم الحكم وغيرهما ، ومجرد النظر فيها يُظهر فسادها ويكشف قبحها وعجزها عن البقاء والاستمرار . وقد جاء هدى الله ودينه القويم ليزيح ذلك الباطل عن الوجود ، ويملاً تلك الفراغات الهائلة ، بتشريع سديد حكيم يتوخى الخير في كل صوره ، ويدفع شرّ في كل أشكاله ، ويهيئ الجو لقيام حياة سعيدة راقية ، ونسوق في السطور الآتية مثلاً من التشريع الإلهي العظيم في نفس المجالات المتقدمة التي رأينا انحراف التشريع البَشَري فيها :

### ١ - حقوق الإنسان :

يقرر القرآن الحكيم في هذا المجال حقيقتين بارزتين لم يهتد إليهما تشريع بشري قط .

الأولى : أن الناس متفاوتون في المواهب والاستعدادات والملكات الذهنية ، وأن هذا التفاوت له حكمة عظيمة في تقدير خالق الناس ومدير أمورهم . وغاية ذلك إعمار هذا الكون واحتياج كل إنسان لأخيه وتبادل المنافع بينهم تبعاً لاختلاف مواهبهم وقدراتهم ، تلك هي سُنّة الله في خلقه ، ولو كانوا مستوين في الملكات والقدرات لجمدت الحياة .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سَخِرِيّاً ، وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١)

---

(١) الزخرف : ٣٢

فهم متفاوتون فى القوة والضعف ، وفى الغنى والفقر ، وفى العلم والجهل ، وفى الإقدام والإحجام ، وفى الفطنة والتبلد ، وفى المناقب والمثالب ، وفى الكرم والبخل ، وفى سعة الحيلة وضيقها ، وفى الحرِّف التى يمارسونها . وهذا التفاوت غايته تشابك المصالح وتبادل المنافع لتسير عجلة الحياة ، وقد عبّر أحد الشعراء عن هذا المعنى فقال :

الناس للناس من بدوٍ وحاضرة      بعضٌ لبعضٍ - وإن لم يشعروا - خدم  
أما الحقيقة الثانية . . فإن هذا التفاوت ليس مقياساً للفضل بين الناس ، فهم - جميعاً - سواسية عند الله ، وإنما مقياس الفضل عند الله هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح . هذا المبدأ العظيم تقرره آية واحدة قصيرة المبنى غزيرة المعنى : ﴿ إِن أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ﴾ (١) .

بهذا القرار الإلهى التشريعى الحكيم قضى هدى الله ودينه على كثير من القيم الزائفة التى يتخذها الناس مقاييس للفضل والشرف :

قضى على نظرية الجنس ، ونظرية اللون ، ونظرية البيئة ، ونظريات الحسب والنسب ، والجاه والغنى ، والقوة المادية الباطشة . فكل هذه « القيم » لا وزن لها فى الإسلام إذا لم يصاحبها إيمان واستقامة وتقوى وعمل صالح . فالهنود والرومان واليونان وبنو إسرائيل ومن جرى مجراهم كانوا خاطئين فى تفضيل من فضّلوا ، وتحقير من حقّروا ، وكل النزعات العنصرية الدابرة والقائمة هى ضرب من الغرور الطائش ، والوهم الزائل . فالناس سواسية كأسنان المشط بأصل الخلقة مهما تباينت أجناسهم وألوانهم وبيئاتهم . وفى هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى » .

وكان عمر بن الخطاب يشير إلى أبي بكر وبلال - الذى اشتراه أبو بكر ثم أعتقه - ويقول : « هذا سيدنا وأعتق سيدنا » .

كما يشير القرآن الكريم إلى خطأ من اعتقدوا أنهم فضلاء لكثرة أموالهم وأولادهم فقال : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (١) .

فليس للإنسان سيد من الخلق ، ولا هو سيد لأحد منهم ، وهذه منزلة تبوأها الإنسان فى هدى الله ودينه ، لم يحظ بها فى تشريع بشرى قط .



## ٢ - صلة الإنسان بالله :

سوى دين الله وهداه بين الناس جميعاً ، ولم يجعل لأحد - مهما علا - فضلاً أو سيادة على أحد - مهما نزل - ثم نفى فى تشريع آخر أى واسطة بينه وبين الناس ، فالله سميع عليم بكل شئون خلقه ، يتوبون فيتوب عليهم ، ويدعون فيسمع دعاءهم ، لا تتوقف توبته عليهم ، ولا سماعه لدعائهم على وساطة كاهن أو شفيع : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إن الله ييسط يديه بالنهار ليتوب مسئ الليل ، وييسط يديه بالليل ليتوب مسئ النهار » .

ومضى القرآن ليقرر أن الذنوب لا يغفرها إلا الله : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ .. ﴾ (٣) .

(٣) آل عمران : ١٣٥

(٢) البقرة : ١٨٦

(١) سبأ : ٣٧

وبهذا يتحطم كرسى الاعتراف ، وتصم آذان الكهان الذين يدعون قدرتهم على غفران الذنوب بعد افتضاح مرتكييها ، وتحرق صكوك الغفران ، وتسقط ربوبية الأبحار والرهبان ، وتزول لعبة الاستخفاف بالعقول ، ويتحرر الإنسان فى شريعة الرحمن من الوسطاء والأوصياء ، وتتفتح أمامه أبواب السماء بلا رقيب ولا حسيب من البشر .



### ٣ - لا عصمة لمخلوق :

مما اشتط فيه التشريع البشرى ما شاع بين أهل الكتاب من يهود ونصارى من إضفاء العصمة على الأبحار والرهبان والبابوات وطاعتهم طاعة عمياء فى كل ما يشرعون لهم ، واتخاذهم أرباباً من دون الله ، ومن الناس - قديماً - من اتخذ من الملائكة والنبين أرباباً .

أما فى دين الله وتشريعه فتختفى كل هذه الأوهام ، فلا عصمة فيه لأحد من الخلق - حتى الأنبياء والمرسلين - إلا فيما أمروا بتبليغه ، فهم فيه أمناء فطناء معصومون من الخطأ فى التبليغ . أما فى غير ما أمروا بتبليغه مما يصدر عنهم من آراء فى بعض المشكلات العارضة ، أو تدبير شئون خاصة لا صلة لها بالتبليغ أو التحليل والتحرير فإن الخطأ أو خلاف الأصوب جائز وقوعه منهم .

ومعلوم أن أنبياء الله ورسله هم صفوته من خلقه ، ومختاروه منهم ، ومع هذا فلم يأذن لهم بالتشريع من عنديات أنفسهم إلا ما كان طريقه الوحى أو الإلهام الكاشف المنزل منزلة الوحى الأمين .

ومن قواطع الأدلة فى دين الله على ما تقدم قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّيَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ \*

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا . أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ .

وشنَّ القرآن على أهل الكتاب حين نزلوا أحبارهم ورهبانهم وبعض أنبيائهم منزلة الأرباب فقال : ﴿ اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

ويقول النبي ﷺ : « كل ابن آدم خطَّاءون ، وخير الخطَّائين التَّوَّابون » .

وفى وقف شئون التشريع على الله وحده ورد قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مُّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (٣) .

فقد وقفت الآية قضايا التشريع على وحى الله وحده .

وقال مشنَّعاً على فريق من الناس : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ .. ﴾ (٤) .

وبين فى موضع آخر أن الله هو مصدر التشريع إلى جميع الأمم التى بعث فيها أنبياء ، فيقول مخاطباً خاتم الرسل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ... ﴾ (٥) .

ويأخذ على طائفة من الناس وضعهم تشريعات لم يأذن بها الله فيقول :

(٣) الأنعام : ١٤٥

(٢) المائدة : ٣١

(١) آل عمران : ٧٩ - ٨٠

(٥) الشورى : ١٣

(٤) الشورى : ٢١

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلَهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

وفى آية أخرى يُنكر القرآن الكريم أن يتناول الناس شيئاً من أمور التشريع بغير هدى من دين الله ، ويطلق على هذه الظاهرة الجاهلية وصف الكذب ، ويقضى على ممارستها بالخسران وعدم الفلاح . فقد ورد فى هذا قوله تعالى :  
﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ متاع قليل وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ (٢) .

إن التشريع فيما يتعلق بالتحليل والتحريم ، وما يتصل بهما يخضع لاعتبارات دقيقة ومعقدة ، يقصر العقل البشرى عن إدراكها بغير وحى الله ودينه ، فالناس - دائماً - يسيبون ويخطئون ، وليس فيهم من هو معصوم من الخطأ ، لا بابوات ولا مامات ، ولا أحرار ولا رهبان ، ولا شيوخ مهما أوتوا من العلم والمعرفة .

ومن أقطع الأدلة على قصور العقل فى هذا المجال الاضطرابات والتناقضات التى شاعت فى التشريعات البشرية قديماً وحديثاً ، فالناس - جميعاً - عليهم أن يكفوا عن هذا الانحراف الخطير ، وأن يلتزموا ما شرع الله فى كتابه ، وعلى لسان رسوله الصادق المصدوق . فإن التشريع بغير ما أنزل الله منازعة لله فى واحدة من صفات « الألوهية » ، ولهذا حذرنا العليم الخبير فقال : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

(٣) الأعراف : ٣

(٢) النحل : ١١٦ - ١١٧

(١) يونس : ٥٩

وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَ وَمَا كُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .



#### ٤ - كفالة الحريات :

حينما تعرّضت التشريعات الوضعية لحقوق الإنسان أساءت إليها إساءات بالغة . وبرزت تلك الإساءات - كما تقدم - فى تقسيم المجتمعات إلى طبقات ، بعضها لها كل المزايا بالوراثة ، وبعضها ترفل فى قيود الذل والتبعية والرق بالوراثة كذلك ، وتُسخر لخدمة الأسياد وتقوم بأشق الأعمال .

ولكن هدى الله ودينه أنصف تلك الطبقات الذليلة ، وجعل لكل إنسان حقوقاً مرعية بمجرد أن يولد حتى آخر يوم فى حياته ، وقضى تشريع الله الحكيم على كل ألوان الظلم والاضطهاد ، وفتح الأبواب واسعة لتحرير الرقيق وإمتاعهم بالحريات اللازمة والثالثة بكرامة الإنسان .

ومن تلك الحقوق كفالة الحريات الإنسانية ، ومن أبرزها :

(١) حرية الاعتقاد : فليس لأحد على أحد سلطان لإجباره على الدخول فى أية عقيدة ، وإن كانت عقيدة الإسلام . والنص التشريعى الخالد فى هذا المجال هو قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ .. ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. ﴾ (٣) .

(٢) حرية العمل : فلكل إنسان أن يختار من الأعمال ما يوافق مواهبه دون حَجْرٍ عليه من مخلوق مثله ، ما دام العمل الذى يؤديه مشروعاً ولا يترتب

(٢) الكهف : ٢٩

(٢) البقرة : ٢٥٦

(١) الأنعام : ١٥٣

عليه ضرر بأحد . والأصل في هذا قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١) .

فلا رقابة لأحد على أحد فيما يعمل إلا رقابة الله سبحانه ، ما لم يكن في العمل اعتداء على النظام العام الذي شرعه الله للناس ، فلا بد من النهي عن هذا المنكر ، وتطبيق شرع الله على مرتكبيه .

وأحياناً يُعبر القرآن الحكيم عن العمل بالمشي ، كما في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (٢) .

(٣) حرية القول والرأى : لم يحجر الإسلام على أحد في أن يعبر عما في نفسه من معان ، أو يبدي رأيه في مشكلة ، كل ما يضعه الإسلام للقول والرأى هو أن يتوخى المتكلم الحق والصلاح في قوله ، والنصح والإصلاح في رأيه . قال سبحانه : ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٣) .

وفي مجال إبداء الرأى فُتِح باب التشاور في كل الأمور التي يحيط بها نوع من الغموض : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ..﴾ (٤) .

كما فُتِح باب الدعوة إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله عند وقوع النزاع بين الجماعة بعضهم بعضاً ، أو بينهم وبين ولاية أمورهم : ﴿.. فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ..﴾ (٥) .

(٤) حرية التملك : لم يحد هدى الله ودينه مقادير معينة للتملك ، وإن بلغت ثروات الأفراد عنان السماء ، ما دامت طرق الكسب مشروعة ، والحقوق مؤداة ، وتشتمل حرية التملك عدة صور :

(٣) النساء : ٩

(٢) الملك : ١٥

(١) فصلت : ٤٠

(٥) النساء : ٥٩

(٤) آل عمران : ١٥٩

١ - تملك المقدار مهما بلغ .

٢ - تملك النوع ما لم يكن محرماً كالخمر والمخدرات .

٣ - حرية التصرف ما لم يكن فى محرم .

٤ - حرية بقاء الملك بيد صاحبه ما لم تدع ضرورة الجماعة نزع شئ منها مقابل تعويض عادل .

وبكفالة هذه الحريات الضرورية كفل هدى الله ودينه للإنسان كرامته وجعله أهلاً لتحمل المسؤولية وأداء دوره فى الحياة ، ولا سلطان عليه لأحد سوى سلطان خالقه ومولاه .

\*\*\*

## ٥ - ظاهرة الرق :

لا يقدح فيما قررناه من كفالة الحريات فى دين الله وهداه ما نجده من الفقه الإسلامى من أحكام الرق وملك اليمين ؛ لأن كلمة الحق التى ينبغى أن تقال فى هذا المقام : أن الإسلام جاء ونظام الرق فاش فى المجتمعات الإنسانية ، والاتجار فيهم كان يمثل جانباً ضخماً فى الاقتصاد العالمى ، وكان من الممكن أن تنزل آية واحدة تقضى بتحريرهم فوراً . ولكن من حكمة التشريع الإسلامى أن أبقى على أصل تلك الظاهرة لئلا يلحق الضرر بالكى الرقيق ، ثم فتح الأبواب واسعة للقضاء عليها بالتدريج ، فجعل العتق قربة عظيمة يتقرب بها المعتق من الله ثم :

١ - جعل العتق من كفارات اليمين .

٢ - ومن كفارات الظهار .

٣ - ومن كفارات الفطر بلا عذر فى شهر رمضان .

#### ٤ - ومن كفارات القتل الخطأ .

ومصارف أخرى عملية أسهمت فى تصفية ظاهرة الرق ، ولم ينشئ الإسلام حالة واحدة يترتب عليها حدوث استرقاق جديد إلا أسرى الحرب ريثما تضع الحرب أوزارها ، ويتم التصرف فيهم حسبما يتفق عليه الطرفان .

فالإسلام ليس مسئولاً عن استحداث ظاهرة الرق ، بل هو التشريع الوحيد الذى رسم طرق القضاء عليها إلى الأبد .



#### ٦ - شخصية الجريمة :

من المزالق الخطرة التى هوت فيها بعض التشريعات الوضعية القديمة ، وما تزال تطبقها تشريعات وضعية معاصرة : إيقاع العقوبة على مرتكبى بعض « الجرائم » كعقوبة الإعدام أو الاعتقال أو السجن ، ثم تطبيق عقوبات أخرى على أسر من أعدموا أو اعتقلوا أو سجنوا ، كحرمان الزوجات والأولاد من المعاش والتضييق عليهم بأساليب أخرى ، هذا ما يحدث الآن ، وقديماً كانت بعض النظم الوضعية تطبق العقوبة على « المجرم » وعلى أهل بيته سواء بسواء باعتبار الجميع مجرمين ، ومن أوضح صور هذا الانزلاق ما يعتقد النصارى من أن عيسى عليه السلام قدم نفسه للصلب ليفدى البشرية من خطيئة أبيهم آدم حين أكل من الشجرة المحرمة فعصى آدم ربه بالأكل منها ، وأن ذريته من بعده حملت إثم هذه المعصية ، فجاء عيسى وصلب - حسب عقيدتهم - ليخلص البشرية من خطيئة أبيهم !!

وجاء هدى الله ورسالته الخاتمة فصححت هذه الأخطاء جميعاً بما يأتى :

أولاً : أن الجريمة - مهما كانت - إنما هى كسب شخصى يتحمل مسئوليتها

الذى ارتكبها وحده ، لا تتعدى إلى غيره ممن لهم صلة بالمجرم أباً أو أمّاً ،  
أو ولداً أو أخاً ، أو زوجة ما دام غيره لم يشترك معه فى الإجرام .

فقد جاء فى القرآن الحكيم : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١) .

كما ورد : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ  
عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٣) .

ثانياً : إن خطيئة آدم قد عفا الله عنه فيها ثم تاب عليه فصار مبرأ من أى  
مؤاخذه عليها : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ  
الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ \* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (٥) .

فخطيئة آدم - كما ترى - محتها التوبة ، ولم يعد هو مسئولاً عنها ،  
فكيف تتحملها ذريته من بعده ؟

وحتى لو لم يتب ، ويتب الله عليه ، لظل هو وحده المسئول عنها ، لأن  
الخطايا لا تورث ، ولأن الله ليس بظلام للعبيد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ  
ذَرَّةٍ ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٦) .

وهكذا يحرر هدى الله ودينه الإنسان من أن يؤخذ أحد بجريرة أحد ،  
ويقرر الحقوق والواجبات الإنسانية فى تشريع عادل حكيم ، يساير سنن الفطرة ،  
فلا ظالم ولا ظلم ولا مظلوم ، وإنما عدل ورحمة ، وقسطاس مستقيم .

\* \* \*

(٣) الإسراء : ١٥

(٢) المدثر : ٣٨

(١) الزمر : ٧

(٦) النساء : ٤٠

(٥) طه : ١٢١ - ١٢٢

(٤) البقرة : ٣٧